

المحاضرة الخامسة (5): مفهوم النص من منظور تيار ما بعد البنيوية

1/ مفهوم النص من منظور التفكيكية:

تعدّ التفكيكية اتجاها نقديا مضادا للبنيوية، لذلك تصنف ضمن تيار ما بعد البنيوية، رائدها هو الفيلسوف والناقد الفرنسي جاك دريدا. إنّ تفكيكية دريدا كممارسة نقدية، تعمل على تفكيك النص؛ لتكشف أن ما يبدو عملا متناسقا وبلا تناقضات هو بناء من الاستراتيجيات والمناورات البلاغية. إن فضح ذلك البناء ينسف الافتراض بوجود معنى متماسك غير متناقض، ومفهومه يمكن تفسيره بشكل واضح.

يؤكد دريدا أهمية تحطيم كلّ الجاهز والمؤطر والمشكل والنظامي سواء أكان نظريا، أم ثقافيا، أم مؤسسيا. ويلاحظ دريدا على النصوص أنها ليست متجانسة دائما ويحدد مطلبه من القراءة بقوله: "ما يهمني في القراءات التي أحاول إقامتها هو ليس النقد في الخارج، وإنما الاستقرار والتموضع في البنية غير المتجانسة للنص، والعثور على توترات، أو تناقضات داخلية، يقرأ النصّ من خلالها نفسه، ويفكك نفسه، أن يفكك النصّ نفسه فهذا يعني أنه يتبع حركة مرجعية ذاتية حركة نصّ لا يرجع إلّا إلى نفسه، ولكن هناك في النصّ قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته."

تهاجم التفكيكية حسب دريدا الصرح الداخلي؛ سواء الشكلي أو المعنوي للوحدات الأساسية للتفكير الفلسفي، كما تهاجم ظروف الممارسة الخارجية أي الأشكال التاريخية للنسق التربوي لهذا الصرح والبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمؤسسة التربوية. فالتفكيكية تقلبُ مسلمات الفلسفة الكلاسيكية رأسا على عقب، ومن هذه المسلمات القول إنّ الفلسفة تستطيع التوصل إلى الحقائق التي يطمسها الأدب ويفسدها بالتلاعب الظاهري باللغة والخيال، في حين أن الفلسفة والتفكير العلمي هما أيضا مرتبطان ببنيات لغوية لها تأثير حيوي وقدرة على تعقيد النشاط المنطقي في كل من الفلسفة والتفكير العلمي. أي أن آليات التعطيل في الأدب والفلسفة واحدة، ومن ثم يكون الوصول إلى الحقيقة المطلقة أمرا في غاية الصعوبة.

تعدّ التفكيكية منهجا نقديا خطيرا، لأنها نقد وتفكيك للمفاهيم السائدة، قامت على التشكيك وزعزعة كل يقين. انطلقت التفكيكية من التشكيك في العلم، ثم تحوّل إلى شك في كل شيء. شكّت التفكيكية في العلاقة القائمة بين الدال والمدلول والمعنى المتولد عنهما، وهذا ما لا يقبله المنطق. إنّ شك التفكيكية في اللغة نتج عنها شك في كل قراءة أو تأويل للنصوص، وهكذا فتحت التفكيكية الباب على مصراعيه لتعدد القراءات. تعسّف التفكيك في الاحتكام إلى اللغة، وإقصائها الملابس الخارجية جميعها؛ أدى إلى إلغاء المؤلف والحكم عليه بالموت، وبهذا يصبح المؤلف ناسخا فقط لنصوص أدبية، وفي هذا تجاهل لمواهب الأدباء وفرديتهم وتميّزهم. ثم إنّ تركيز التفكيك على الكتابة ونفيه للأشكال الأخرى للتواصل، أدى إلى غموض التفكيك واستخدامه لمصطلحات غير واضحة سعيا لإبهار القارئ وإقناعه بأن ما يقال استثنائي وغير عادي.

2/ مفهوم النص من منظور التأويلية:

التأويل هو استخلاص المعنى الكامن انطلاقاً من المعنى الظاهر، ومن أهم المجالات التي يمارس فيها منهج التأويل "النص الديني"، غير أنه اليوم شاع استعماله في غيره من المجالات. ومن رواد هذا الاتجاه النقدي "أمبرتو إيكو" الذي توقف عند موضوع التفسير والفهم، فالتأويل يهدف إلى تجنب سوء الفهم، ولذلك فإن فهم النص لا يبدأ من قراءة النص، وإنما يبدأ من خلفية القارئ وثقافته والدوال المكوّنة لهذه الثقافة وآفاقه المعرفية. يقول بول ريكور: "علينا أن نخمن معنى النص لأن قصد المؤلف بعيد عن متناول أيدينا، ولعلّ اعتراضنا على التأويلية الرومانسية، هنا، يتضاعف ويزداد قوة، ليس السبب في مشكلة التأويل هو عدم إمكان نقل التجربة النفسية للمؤلف؛ بل يكمن في طبيعة القصد اللفظي للنص. ويدلّ تخطّي المعنى للقصد على أن الفهم يحدث في فضاء غير نفسي، بل دلالي، نحت فيه النص نفسه منفصلاً عن القصد العقلي لمؤلفه." فحسب ريكور، إذا كان المعنى الموضوعي شيئاً آخر غير القصد الذاتي للمؤلف، فيمكن تشكيله بطرق مختلفة، وسوء الفهم ممكن، بل لا يمكن تحاشيه، ولا يكون بالمستطاع حل مشكلة الفهم الصحيح عن طريق عودة بسيطة إلى موقف المؤلف المزعوم، ولا مصدر آخر سوى هذا لمفهوم التخمين.

تتضمن النصوص الأدبية آفاق معانٍ ضمنية، يمكن تحقيقها بطرق مختلفة، وترتبط هذه السمة ارتباطاً مباشراً بدور المعاني الاستعارية والرمزية. يقول ريكور "إذا صحّ القول دائماً بوجود أكثر من طريقة لتفسير النص، فلا يصحّ القول أن التأويلات متساوية؛ فالنصّ يقمّ ميداناً محدوداً من الأبنية الممكنة، ويتيح لنا منطق التصديق أن نتحرّك بين حدّي الدوغمائية والشكّية، بل يمكن دائماً الوقوف مع أو ضد تأويل معين، والمواجهة بين التأويلات، والفصل بينهما، والبحث عن اتفاق، حتى لو كان هذا الاتفاق بعيداً عن متناول أيدينا."

3/ مفهوم النص من منظور النقد الثقافي:

النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوي العام؛ يُعنى بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغته، ما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي وما هو كذلك سواء بسواء، ومن حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. أي أنه لا يُعنى بكشف الجمالي شأن النقد الأدبي، وإنما همّه هو كشف المخبوء تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات، لا بمعنى جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وتكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي.

ومن ثم فإن هذا النص، الذي لم يعد نصاً أدبياً جمالياً فحسب، لكنه أيضاً حادثة ثقافية، لا يُقرأ لذاته ولا لجماليته، وإنما يعامل بوصفه حامل نسق أو أنساق مضمرة تصعب رؤيتها بوساطة القراءة السطحية، لأنها تتخفى خلف سحر الظاهر الجمالي. وهذه دعوة صريحة تشكل أحد ارتدادات ما بعد الحداثة النقدية، إلى التعامل مع النص الأدبي بوصفه علامة ثقافية قبل أن يكون قيمة جمالية لا تتحقق دلالتها إلا من خلال سياقه الذي أنتجها أول مرة (سياق المؤلف، وسياق القارئ أو الناقد) الذي تلقاها بعد ذلك في سعيه نحو التفسير.

تكمن مهمة القارئ/ الناقد أساساً في الوقوف على أنساق مضمرة مرتبطة بدلالات “مجازية كلية”، وليس على نصوص ذات دلالات صريحة. وتخالف هذه الوظيفة، التي يؤديها النقد الثقافي، وظيفة النقد الأدبي القاصر الذي “أوقعنا في عمى ثقافي تام عن العيوب النسقية المختبئة تحت عباءة الجمالي.

أهم المراجع:

1. بول ريكور: نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، الناشر المركز الثقافي العربي، ط2، 2006.
2. رولان بارت: نظرية النص، تر: محمد الرفرافي ومحمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع10، 1990.
3. عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، الكويت، ع298، نوفمبر 2003.
4. عبد الكريم درويش: فاعلية القارئ في إنتاج النص، المرايا اللامتناهية، مجلة الكرمل، 2010.